وجع الفِكر
المحسوب على الإسلام

المهندس عدنان الرفاعي

حينما يتحوّل التاريخُ عند أمّةٍ من الأمم إلى منجمٍ لصناعة الأقنعة المذهبيّة والطائفيّة ، فإنّ هذه الأمّة تشوّه مفهومها لدينها ، وتقتل ذاتها ، وتحرفُ فكرها ، وتُغرقُ مستقبلها في مستنقعات ماضيها .. وبالتالي تَخرج من التاريخ كأمّةٍ فاعلة فكرياً وحضاريّاً ..

وحينما يتحوّل التاريخُ عند أمّةٍ من الأمم إلى منجمٍ لصناعة معاييرِ تقويمِ رؤاها الفكريّة والحضاريّة ، فإنّ هذه الأمّةَ تعي دينها وذاتها ، وتُقوِّمُ فكرَها ، وتبني مستقبلها بناءً سليماً .. وبالتالي تدخل التاريخ كأمّةٍ فاعلة فكريّاً وحضاريّاً ..

إنّ من ينظر إلى واقعِ العربِ والمسلمين منذ معركة الجمل حتى الآن ، نظرةً مجرّدةً عن أيِّ عاطفةٍ أو عصبيّة ، سيرى ويستنتج أنّ الكثيرَ من مواريثنا الفكريّة (وحتى بعض المواريث الفقهيّة) التي حُسبت على الإسلام كأحكامٍ مقدّسة ، لا علاقةَ لها بدين الله تعالى لا من قريب ولا من بعيد ، وأنّها تُخالف – بل تُناقض – حقيقةَ القرآن الكريم ، وأنّها دخلت على فكرنا الديني نتيجة جعل التاريخ منجماً لصناعةِ الأقنعة التي نُقدِّسُ من يلبسُها باسم الدين ..

.. الإيمانُ ضرورةٌ ، ولكن لا يكفي أن نكونَ مؤمنين ، والصدقُ ضرورةٌ ، ولكن – كفكر أمّة – لا يكفي أن نكونَ صادقين .. فلا بُدَّ من أن نكونَ متفكِّرينَ متعقِّلين لما نعتقد ونقول ونعمل ، وأن نُعيدَ فكرَنا وما بين أيدينا من تاريخ (بما في ذلك روايات الأحاديث) إلى القرآن الكريم .. وإلاّ سيتحوّلُ إيمانُنا إلى كُفرٍ دون أن نُحسَّ بذلك ،

وسيتحوّلُ صدقنا إلى كذبٍ دون أن نشعرَ بذلك ، وبالتالي سنتمثّلُ ما يعنيه النصُّ القرآنيُّ التالي ..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (٣٠١) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (٤٠١) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (٥٠١) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً) [الكهف : ٣٠١-٦٠١]

.. أليس الكفرُ بآياتِ الله تعالى هو الجحودُ – عن معرفةٍ – بالأحكام الواردة في كتابه جلّ وعلا ؟ .. وبالتالي الاستهزاءُ بلقاءِ الله تعالى ، وبرسلِهِ وما نزل معهم من عند الله تعالى ؟ ..

أليس تحويلُ دلالات العبارة القرآنيّة (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [الشورى : ٨٣] كواقع تاريخي إلى الشكل (وأمرهم شوربة بينهم) ، على الأقل منذ عصر معاوية بن أبي سفيان ، هو في الحقيقة كفرٌ بدلالات هذه العبارة القرآنيّة ، وبالتالي استهزاءٌ بلقاءِ الله تعالى ، وبرسله ، وبمنهجِ الله تعالى من أساسه ؟ ..

كيف يقف بعض الذين نصّبوا أنفسهم ناطقين باسم الله تعالى ليقولوا للناس : إنّ الديموقراطيّة في الخندق المعادي للشورى التي أمر الله تعالى بها ؟ !!! .. وليقدّموا أُطر مسألة الشورى ضمن أدوات تفاعل الأجيال الأولى معها ، وضمن حالات تطبيقها فقط ؟ !!! .. وبالتالي فإنّ مسألة الشورى – عندهم – لا تخرج عن آليّات تسليم الحكم في عصر الخلفاء الراشدين ، وعن آليّة اغتصاب معاوية للحكم وتحويل نظام الشورى إلى نظامِ حكم ملكي لا علاقة له بمنهج الله تعالى لا من قريب ولا من بعيد ..

ونحن بكلامنا هذا لا نقدّم أيّ آليّة من آليّات الديموقراطيّة الحديثة على أنّها عينُ منهج الشورى التي يريدها الله تعالى لكلِّ زمانٍ ومكان ، إنّما نقول : إنّ الشورى التي يأمر الله تعالى بها تتحرّك أدواتها وآليّاتها ومواضيعها تحركاً يوازي التقدّم الحضاري

للأُمم في كلِّ مكانٍ وزمان ، شريطة تحقّق ثوابت القِيَم والأخلاق والعدل والحريّة والأمانة ومشاركة جميع أبناء الأمّة ..

ونتيجة تقديم التاريخ كبديلٍ عن منهج الله تعالى ، نرى أنّ أدوات تطبيق الديموقراطية عند الكثير من الدول الأوروبيّة – الآن – أقرب بكثير إلى قوله تعالى (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) من معظم أدوات الشورى التي أُستخدمت في تاريخنا العربي والإسلامي ، قديماً وحديثاً ..

مشكلتنا أنّنا لم ندرك بعد أنّ الاقتراب من منهج الله تعالى ، يكون بالاقتراب من تطبيق أحكامه وتنفيذها على أرض الواقع ، وليس بالتمني والتحلّي والأقوال المجرّدة عن الأفعال .. وبالتالي مشكلتنا أنّنا لم ندرك بعد أنّ الكثير من أعمالنا ينطبق عليها قول الله تعالى (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) ، وأنّ الكفرَ بآيات الله تعالى (أحكامه) هو الإعراض عن تنفيذها بالحيثيّة التي يريدها الله تعالى ..

..... أليس تحويلُ حكمِ القرآن الكريم بعدم وأد الأنثى ، إلى أوجه أُخرى من الوأد الاجتماعي والإنساني والحضاري ، بحيث تُصبح المرأةُ مُجرّدَ متعة ، ومُجرّدَ مربّيةٍ للأولاد .. أليس ذلك كفراً بأحكامِ كتاب الله تعالى ، بحيث تحلُّ التقاليدُ البدويّةُ مكانه ، وبالتالي استهزاءٌ بلقاءِ الله تعالى ، وبرسله ، وبمنهج الله تعالى من أساسه ؟ ..

فنتيجةٌ لدفن الكثيرِ من أحكامِ القرآنِ الكريمِ على يد التقاليد البالية والعصبيّاتِ العفنةِ ، لم تمرّ سنون – ليست كثيرةً بعمر الزمن – حتى عادت الجاهليّة – في بعض المسائل – ولكن بعد أن أُلبِسَت ثوبَ القداسة ..

إنّ المرأةَ المسلمةَ تقعُ اليومَ بين جاهليّتين .. جاهليّة الوأد الاجتماعي والحضاري المرتبطة بتقاليدَ بدويّةٍ لا علاقة لها بالمنهج .. وجاهليّة غربيّة خلاعيّة ليست أقلَّ بشاعةً من جاهليّةِ الوأدِ الخفيِّ .. والذين يُقدِّمون أنفسَهم ناطقين باسم الله تعالى ، يضعون

الأمّةَ في اختيارٍ جبريٍّ بين هاتين الجاهليّتين ، مع أنّ القرآن الكريمَ يرفض الجاهليّتين على حدٍّ سواء ..

فذروة المأساة تتجلّى باعتقاد الكثيرين بأنّ البديل الوحيد للجاهليّة الغربيّة الخلاعيّة هو الوأد الخفي للمرأة بحيث لا تخرج من بيتها ولا تُشارك في صنع الحضارة وتطوّرها ..

أليست المرأةُ نصفَ المجتمع ؟ .. أليست ممّن حُمِّلَ مسؤوليّةَ خلافةِ الله تعالى في الأرض ؟ .. أليست خلافةُ الله تعالى في الأرض تعتمدُ على الفكرِ والعملِ ، وعلى كُلِّ ما يميّزُ الإنسانَ عن الحيوان ؟ .. فكيف تكون المرأةُ خليفةً لله تعالى في الأرضِ ، حينما تُقتَصَرُ مهمّتُها في الحياةِ على الجلوسِ في بيتها للمتعةِ ولتربيةِ الأولادِ فقط ، دون أن تُشاركَ مباشرةً في أيِّ بُعدٍ حضاريٍّ للأمّة ؟.. أليست في هذه الحالة – من زاوية خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض – تُوضع – وظيفيّاً – في مرتبة الحيوانات ، التي يتمتّع الإنسانُ بإنتاجها لغذائه ؟ .. فكيف إذن يُرجِفُ الجاهلون بجعل المرأة حيواناً مهمّتُه متعةُ الرجل وتربيةُ الأطفال فقط ، وذلك باسم الإسلام ؟ .. إنّها مقابلةٌ للجاهليّة الغربيّة الخلاعيّة ، بجاهليّةٍ بدويّةٍ لا تنتمي لجوهر الإسلام بشيءٍ ..

أليس قطع أعناق بعض المسلمين – باسم الإسلام – على يد المسلمين ، لأسبابٍ لا علاقة لها بالإسلامِ وحدوده ، منذ الجيل الأوّل حتى الآن ، هو جحودٌ بقوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) [النساء : ٩٣] .. وبالتالي هو استهزاءٌ بالله تعالى ، وبرسُلِه ، وبالمناهج التي أُنزلت معهم ؟ ..

وتتجلّى المأساة بتبنّي بعض الروايات التاريخيّة في كتب الصحاح والمنسوبة إلى الرسول (ص) ، وتقديمها على أنّها عين المنهج ، وبتجاهل آيات كتاب الله تعالى التي تبيّن عدم صحّة هذه الروايات ، وعدم صحة جميع التبريرات المصطنعة في تفسيرها .. تلك الروايات التي تصوّر الآخرين في الأديان الأُخرى والمذاهب الأخرى كافرين

مصيرهم النار مهما عملوا ، وتصوّر الأنا محتكراً للخلاص مهما عمل ، ومن هذه الروايات – على سبيل المثال – الحديث التالي في صحيح مسلم ، رقم : (١٧٩٤) حسب ترقيم العالميّة : ((حَدَّثَنَا .... عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ....)) ..

لقد أتى الإسلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن دهاليز التقوقع الاجتماعي والفكري إلى سبل التقدّم الحضاري الذي يُعدّ الإنسانُ أساسَه وهدفَه ، وذلك لمساعدة الإنسان كي يقوم بمهمّته في عبادة الله تعالى ، وفي خلافة الله تعالى في الأرض .. فكيف إذاً يدعو الكثيرون ممّن نصّبوا أنفسهم ناطقين باسم الله تعالى إلى التقوقع في الأنفاق المذهبيّة التي لا وجود لها في كتاب الله تعالى ، وإلى تصوير الآخرين في الأديان الأُخرى في الخندق المعادي دائماً ، ممّا يخلق ردود أفعال تدفع ثمنها الدعوةُ إلى منهج الله تعالى ، وبالتالي يُدفع الآخرون بعيداً عن منهج الله تعالى ، بدلاً من دعوتهم إليه ..

وممّا غرقت فيه المنظومة الفكريّة المحسوبة على الإسلام هو مشابهة اليهود في الكثير ممّا افتروه على الله تعالى ، ومن ذلك مشابهتهم في الزعم بعدم الخلود في النار .. لقد زعم اليهود أنّهم لن تمسّهم النار إلاّ أياماً معدودة يخرجون بعدها ويدخلون الجنّة ، وقد ردّ الله تعالى عليهم في القرآن الكريم مبيّناً افتراءهم على في هذه المسألة ، وأنّ من استحقّ دخول النار لا يخرج منها ..

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة : ٨٠ – ٨١) ..

هذا الزعم قمنا – من خلال بعض الروايات التي تمّ تلفيقها على الرسول (ص) – بافتراءٍ مشابهٍ له ، فكم رواية ننسبها للرسول (ص) بأنّ المسلم مهما عمل لا يخلد في النار ، وبالتالي لن تمسّه النار إلاّ أياماً معدودة ؟ !!! ..

هذا الزعم ترسّب في نفوس الكثيرين من أبناء الأمّة ، فجعلهم متواكلين ، تهون عليهم المعاصي ، وقيمة العمل عندهم ليست كبيرة ، وبالتالي خلق ذلك سبيلاً من الإعراض عن دلالات كتاب الله تعالى كمعيار فكري وفقهي .. ولذلك يصف الله تعالى هذه الحالة في الآيتين التاليتين مبيناً أن الزعم بالخروج من النار هو افتراءٌ على الله تعالى يؤدّي إلى الإعراض عن كتاب الله تعالى ..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٣٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (آل عمران : ٣٢ – ٤٢) ..

وقد بيّنت في النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) كيف أنّ العبارة القرآنيّة (الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ) ، والعبارة القرآنيّة (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب) تعني أهل الكتاب والمسلمين وذلك حسب السياق القرآني المُحيط ..

إنّنا – كأمّة – لم نتعظ حتى من القرآن الكريم .. كلّنا يقرأ قصّة فرعون في القرآن الكريم ، وكلُّنا يعشق حكمَ الآخرين على الطريقة الفرعونيّة .. كلُّنا يقرأ قصّة قارون في القرآن الكريم ، وكلّنا يتمنّى أن يملك ما ملك قارون ، معتقداً ما اعتقد قارون ..

أليس كلُّ ذلك جحوداً بأحكام كتاب الله تعالى ، وبالتالي استهزاءً بلقاء الله تعالى ، وبما جاء به رسله عليهم السلام ؟ .. وبالتالي وضعاً لنا في ساحةِ الذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعاً ؟ ..

لقد أنزل الله تعالى القرآنَ الكريمَ ليكونَ معيارَ روحِ العباداتِ الصادقةِ ، ومعيارَ الأخلاقِ النبيلةِ ، ومعيارَ حفظِ الكرامةِ الإنسانيّة للبشر كافّة في حياتهم الدنيا ، وبالتالي

لتكونَ أحكامُه الخندقَ المعادي لكلِّ الفساد على هذه الأرض وما يصحبه من سفكٍ للدماء ، وذلك حتى قيامِ الساعة ..

ولكن ما نراه – في الحاضر ، وفي الماضي منذ استشهاد عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه – أنّ معظمَ الصراعات – بالنسبة لهذه الأمّة – هي بين مذاهبها وطوائفها وأبنائها ، لدرجة يختلطُ فيها – تاريخيّاً – الحقُّ بالباطل ، اختلاطاً يجعل منّا – كفكرٍ – أمّةً كالتي نرى بأمِّ أعيننا ..

إنّها الحقيقة المرّةُ التي لا يريدُ الكثيرون سماعها ، فقط لأنّهم ضحيّةُ الأهواءِ التي تدعو لاستبدال المنهج بتاريخٍ لم يُقنع حتى جميع أهله الذين عاشوا أحداثَهُ .. وحينما يخرجُ صوتٌ للدعوةِ إلى منهج الله تعالى (القرآن الكريم) المجرّدِ عن التاريخ ، تخرجُ ملايين الأصواتِ التي تُسكته بِحُجَّةِ أنّ هذا الصوتَ سيُبَدِّلُ دينَ الآباءِ والأجداد ، وبالتالي سيُظهِرُ الفسادَ في الأرض ..

إنّها الحقيقة المرّة المتكرّرة في كلِّ زمانٍ ومكان ، والتي مثّلها الله تعالى لنا بصوت فرعون ، حينما أرادَ إسكات صوتِ الحقِّ الذي جاء به موسى عليه السلام ..

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) [غافر : ٦٢] ..

إنّ أبشعَ أشكالِ إسكاتِ صوتِ الحقِّ ، هو إسكاتُ صوتِ الحقِّ بزعمِ أنّه صوتٌ يُناقضُ منهجَ الله تعالى .. فها هم الكافرون يتّهمونَ أحدَ رُسُلِ الله تعالى بأنّه يفتري على الله الكذب ..

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) [المؤمنون : ٨٣] ..

إنّ الأصواتَ التي تتعالى لإسكات كلِّ صوت حقٍّ في الفكر الإسلامي يدعو لجعل القرآن الكريم معياراً للتاريخ برواياته وأحداثه ، هي أخطر – في معيار الحقِّ – حتى من صوت فرعون الذي أراد به إسكاتَ صوت الحقِّ ، وذلك لسببين ..

١ - فرعون يعلم أنه على باطل .. بينما الأصوات التي ترتفع لإسكاتِ صوت الحقِّ داخل فكر هذه الأمّة ، بحجّةِ أنّ صوتَ الحقِّ هذا سيُبَدِّل الدين ، لا يعلم أصحابُها أنّهم – في ذلك – على باطل ، لأنّهم طلّقوا عقولَهم ، وباتوا يعبدون – كفكر وليس كشعائر عبادات – أصناماً تاريخيّة ، يحسبونها عينَ المنهج ..

٢ - حتى فرعون لم يُلغِ مبدأ الحوار ، وإن لم يعترف بنتيجته ، وإن كان قد كذّبَ بآيات ربِّه كلِّها .. إلاّ أنّه دعا للمناظرة ..

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٦٥) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٧٥) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوَىً (٨٥) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً) [طه : ٦٥ – ٩٥] ..

بينما نرى أنّ الأصوات التي ترتفعُ لإسكاتِ صوتِ الحقِّ الذي يدعو إلى تدبّر كتاب الله تعالى ، واعتبارِهِ معيارَ تاريخنا وفكرِنا ، ترفض مبدأ الحوار الفعلي الحقيقي من أساسه .. فالقول بأنّ الروايات التاريخيّة [وإن نُسبت تاريخياً إلى رسول الله (ص)] هي معيار إدراك دلالات القرآن الكريم ، وإطاره ، هو في الحقيقة صوتٌ لإسكاتِ صوتِ الحقِّ الذي يدعو إلى تدبّر كتاب الله تعالى ، تدبّراً مجرّداً عن التاريخ ومشاكله ..

وأكبرُ دليلٍ على صحّة ما نقول ، هو أنّ الكثيرينَ ممّن يُنصِّبون أنفسَهم ناطقين باسم الله تعالى ، يُقرّون ، ويُدرِّسون في جامعاتهم ، أخذاً عن التاريخ الذي يحسبونه منهجاً ، بأنّ الحديث ينسخُ القرآن الكريم ..وبالتالي يُقرُّونَ بأنّ منهجهم هو وضع التاريخ بدلاً عن منهج الله تعالى ..

والطامة الكبرى تكون حينما يُبرّر الكثيرون هذا النسخ ، ويقدّمونه على أنه عين المنهج ، بحيث يُكفّر من لا يعتقد بذلك ..

إنّ المنهجَ أحكامٌ إلهيّةٌ يحملها القرآن الكريم ، وليس متجسِّداً بقوميّة محدَّدة ، ولا برجالٍ محدّدين ، ولا يُتوارثُ بالتناسل وبالولادة الجسديّةِ .. إنّه عقيدةٌ وفكرٌ وأحكامٌ

وتعاليم شعائر وحياةٌ كاملةٌ ، تبدأ روحاً في القلب ، وتُترجمُ أعمالاً وشعائرَ في عالم الحسِّ .. ولذلك فإنّ الذين يتصوَّرون أحكامَ الله تعالى تُؤخذُ من تمثّل البشر لها – عدا الرسول (ص) – لا يختلفون – من حيث النتيجة – عمّن تصوّروا اللهَ تعالى صنماً ماديّاً ، زاعمين أنّ هذا الصنمَ يُقرِّبهم إليه جلّ وعلا ..

لقد أتى الإسلام لإخراج البشر من ظلمات رحم الآباء إلى نور التعقّل والتدبّر ، وبالتالي فإنّ الإصرار على عدم الخروج من ظلمات رحم الآباء ، هو – في النهاية – إصرارٌ على رفض التعقّل والتدبّر والنور الذي أتى الإسلام من أجله ..

إنّ موتَ الأمّةِ غرَقاً في أخطائها وصراعها الداخلي ، أبشعُ بكثير من انكسارها أمام أعدائها .. فانكسارها أمام أعدائها قد يكون حافزاً لها للنهوض من جديد ، بينما غرقُها في أخطائها يُهلكُ روحَها ، ويدفنها موتاً في مقابر التاريخ ..

فالوسطيّةُ التي أمرنا الله تعالى بها .. (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) [البقرة : ١٤٣] .. تحوّلت – مع الزمن – إلى نقيضها ، عبر تحوّل الكثير من جوانب التاريخ المتناقضة إلى منهجٍ مُقدَّسٍ .. فالنظر إلى التاريخ برواياته (حتى تلك المنسوبة إلى رسول الله (ص) في الصحاح) ، وبرجالاته ، أصبح تقديساً أعمى لهذه الروايات ولهؤلاء الرجال ، وبحيث يُتَّهم من لا يُقدِّس هذه الروايات وهؤلاء الرجال بالكفر والزندقة والخروج من الدين .. وهذا دليلٌ على أنّ التاريخَ تحوّلَ – في الكثير من جوانبه – إلى منهج ، وأنّ الكثيرين من رجالاته تحوَّلوا إلى أصنام ..

.. متى نُدرك أنّ العصبيّة المذهبيّة والطائفيّة شرك ، وأنّ وضع الطائفة والمذهب في السوية الموازية للدين هو – في النهاية – وضع صاحب المذهب شريكاً لله تعالى ، وفي قول الله تعالى التالي أكبر دليل على ذلك ..

(وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (الروم : ١٣ – ٢٣) ..

إنّ وفاءنا وحبَّنا للذين حملوا – من الأجيال الأولى – على عاتقهم رسالةَ الإسلام إلى البشريّةِ ، لا يكون بتحويلهم إلى أصنامٍ ، ولا بتحنيطِ مستقبلِ فكر الأمّةِ بمادّة خصوصيّاتهم التاريخيّة .. بل يكون بالعمل على تحقيق ما أرادوا ، وفق ما يحمله كتاب الله تعالى لحضارتنا التي نعيشها .. فمن المؤكَّدِ أنّهم لو ينهضون من قبورهم ويعيشون هذا العصر ، سيرون في القرآن الكريم ما لم يروه في عصرهم ، وسيكونون أوّل من يُحاربُ جعل تاريخهم منهجاً بديلاً عن منهج الله تعالى ..

نحن المسلمين مكلَّفون بإيصالِ منهج الله تعالى إلى البشريّةِ جمعاء ، من خلال الحكمة والموعظة الحسنة ، ومن خلال التمثّل السليم لمنهج الله تعالى ، وسنُحاسب أمامَ الله تعالى لأنّ أُمماً في الأرض لم تعرف الإسلامَ المعرفةَ الحقَّ ..

.. ولكن ما نريد قوله ، كيف نُعرِّفُ البشرَ على الإسلام ، ونحن نُشوّه أحكامه بعصبيّاتٍ وتقاليدَ ورواياتٍ ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ؟! ..

إنَّ ما حصل – ويحصل – أنّه تمَّ – ويتمّ – لِبسُ الدين على أجسادٍ جُربٍ سقيمةٍ تحوي أنفساً سلبيّة الإرادة واهية الأخلاق لا يربطها بالعلم والفكر رابط ..

إذا كنّا نريد النهوضَ بمسؤوليّاتنا في إيصال نور الإسلام إلى البشريّة جمعاء ، علينا أن ننهضَ علميّاً وحضاريّاً وفلسفيّاً ، بدلَ أن نستجدي من الآخرين فتات الحضارة والعلم والفلسفة .. وعلينا ألاّ نجعلَ ظلمات الماضي تُغرقُ نور الحاضر ، ولا سحب الغد تُغطِّي شمس اليوم .. وعلينا أن نقيمَ الميزانَ على أنفسنا وعلى غيرنا ، لأنّه الوجه المعنويُّ للحكمة ، ومعيارٌ لمعرفة الحقِّ ..

إنّ علينا أن نعلمَ أنَّ تعلّمَ علوم الدنيا ، واتّباعَ سبل التفوّق الحضاري ، حينما توجّه لإيصال منهجِ الله تعالى إلى الناس جميعاً ، هي من أركان الإسلام والإيمان على حدٍّ سواء ..

.. لماذا مُعظم الأمم تنتقل حضاريّاً من عصرٍ إلى عصر ، مولّدةً حضارة كلِّ عصرٍ من هذه العصور ، ابتداءً من عصر البارود وانتهاءً بعصر الفضاء واكتشافِ الخريطة

الجينيّة للإنسان .. بينما نحن أمّة تعيش سباتَها العميق ، وتستهلك فتات الحضارة دون أن تشارك في صناعتها ؟ ..

إنّ هبوطَنا الفكري في تدبّر كتاب الله تعالى ، تدبّراً بالمستوى الحضاري المطلوب ، يُوازي تماماً هبوطَنا في تدبّر العلوم الكونيّة ، وفي اكتشاف قوانينها .. كلّ ذلك من أهمِّ العوامل التي أدّت إلى عدم وصول نور الإسلام إلى جميع أهل الأرض ..

علينا أن ننظر بتجرّدٍ .. هل فكرُنا الذي نستمدّه من التاريخ ، مستنبطٌ من كتاب الله تعالى ؟ .. وإن اختلطت علينا الأمور في ذلك ، علينا أن ننظر بتجرّدٍ ، هل هذا الفكرُ يصنعُ إنساناً ذا قلبٍ خربٍ وهوىً جامحٍ ؟ .. وإن رأينا أنّه يصنع إنساناً يتّصف بهاتين الصفتين ، أو إن اختلطت علينا الأمور ، علينا أن نجزمَ أنَّ هذا الفكرَ ليس من منهج الله تعالى ، لأنّ منهجَ الله تعالى مُيَسَّرٌ للذكر ، بحيث لا تختلط فيه الأمور – على الأقلِّ – إلى هذا الحدِّ ..

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) [القمر : ١٧] ..

إنّ الفكرَ المنبثقَ من بعض الأحاديث ، والذي يعتبر جميعَ أحاديثِ الصحاحِ صحيحةً ، والمخالف لظاهر دلالات كتاب الله تعالى ، باتَ مصنعاً لأقنعة العصبيّاتِ بمختلف أشكالها ، وباتَ حاجزاً أمام ضعيفي الإدراك ، يحجزهم عن التدبّر الحقِّ في منهج الله تعالى (القرآن الكريم) ..

فهناك أحاديثُ – في الصحاح – تُعطي كلَّ مذهبٍ حيثيّات إخراج المذاهب الأخرى من ساحة الإسلام .. وهناك أحاديثُ – في الصحاح – تجعل المسلمينَ في الخندق المعادي للأديان الأخرى دائماً وأبداً .. وهناك أحاديثُ أصبحت حجّةً على كتاب الله تعالى ، لدرجة أنّه يمكن لبعضها أن ينسخَ بعضَ أحكامِ كتاب الله تعالى .. بالنتيجة باتت هذه الأحاديثُ – بعموميّتها – مصنعاً يصنعُ فيه كلُّ عابثٍ في فكر هذه الأمّة ما يريدُ لما يريد ..

إنّ ربطَ فكر الأمّة بحديثٍ يُنكرُ فيه عبد الله بن مسعود (كما يُنسب إليه) كون المعوّذتين من كتاب الله تعالى ، بحيث يُكفَّرُ من يدعو إلى الوقوف عند هذا الحديث .. وبحديثٍ يفقأُ فيه موسى عليه السلام عينَ ملك الموت ، بحيث يُكفّرُ من يدعو إلى الوقوف عند هذا الحديث .. وبحديثٍ تؤدّي صياغتُهُ اللغويّةُ إلى أنّ تحديدَ جنس المولودِ يتحدّدُ بعد تلقيح النطفةِ للبويضةِ بشهور ، بحيث يُكفّرُ من يدعو إلى الوقوفِ عند هذا الحديث .. و .... كلّ ذلك منهجٌ موضوعٌ لتحطيمِ فكر هذه الأمّة ، وللقضاءِ على مستقبلها ..

فنحن إذا أردنا أن نكونَ أمّةً واحدةً ، لا بُدَّ أن نحملَ فكراً سليماً ، بحيث تكون كلُّ قضيّةٍ فكريّةٍ فيه عبارة عن مقدّمة للقضايا الأُخرى ، وتكون نتيجةً لهذه القضايا في الوقت ذاته ، وبالتالي أن يكونَ فكرُنا مستمدّاً من كتاب الله تعالى الذي لا اختلاف فيه ..

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [النساء : ٢٨] ..

إنّ روايات الأحاديثِ – حتى في كتب الصحاح – يُوجدُ فيها اختلافٌ كثيرٌ .. وكلُّ المحاولات – من قبل السابقين واللاحقين – لوأدِ هذا الاختلاف بينها ، هي محاولاتٌ لم يُكتب لها النجاح في الكثيرِ من حالات الاختلاف .. وبالتالي فإنّ النظرَ إلى هذه الروايات ، على أنّها نصوصٌ مقدّسةٌ ، شأنها شأن القرآن الكريم ، سيؤدِّي – بل أدّى – إلى التمزّق الفكري لهذه الأمّة ، وبالتالي إلى اختلافاتٍ مذهبيّةٍ لا نهاية لها ..

.. علينا أن نسألَ أنفسَنا السؤال التالي : هل صبغنا أنفسنا بصبغة الإسلام الذي يحمله القرآن الكريم ، أم أنّنا صبغنا مفهومَنا للإسلام والإيمانِ بسواد ذاتيّتنا السلبيّة ؟ .. هل نعتنق منهجَ الله تعالى كما يريد الله تعالى ، أم أنّنا نرسمُ صورتَهُ بألوانِ عصبيّتنا القبليّة ، لنتمزّقَ مذاهبَ لا نهاية لها ؟ ..

علينا أن نسأل أنفسنا السؤال التالي : أليس قول الله تعالى (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [الروم : ٤٧] وقول الله تعالى (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) [النساء : ١٤١] هما سنّة الله تعالى التي لا تتبدّل ولا تتغيّر ؟ .. ألسنا مهزومين في مُعظم مناحي الحياة ، ابتداءً بساحات القتال وانتهاءً بعجزنا عن صناعة العقال الذي نضعه على رأسنا كرمزٍ لشرفنا العربي ؟ !! .. وبالنتيجة ألا يجب أن يدفعنا هذا إلى مراجعة فكرنا على معيار كتاب الله تعالى ؟ ..

إنّ أكثرَ ما يؤلم في واقع المسلمين ، أنّ إصرارهم على استبقاءِ سباتهم العميق ، عبر عدم دراسة المنهج (القرآن الكريم) دراسةً مجرّدة ، وعبر عدم دراسة التاريخ دراسةً مجرّدة ، وعبر عدم السير في سبل التطوّر الحضاري سيراً فعّالاً ... أنّ هذا الإصرار أكبر حتى من اندفاعِ أعدائهم ضدّهم وضدّ الإسلام ..

.. الحقيقة أنّ واقعنا الذي نعيشه هو نتيجة تشرذمنا الفكري ، قبل كلِّ شيءٍ .. وما يؤلم أكثر أنّنا لم نستفد من تاريخنا .. فمن معركة الجمل ، إلى وإلى وإلى ..... نرى نتيجةً واحدةً ، للمقدّماتِ ذاتِها .. ولكن – للأسف – لا يُوجد من يتّعظ (إلاّ ما رحم ربّي) ، ولا من يتدبّر ، ولا من يقرأ التاريخَ بتجرّد ، ولا من يقرأ المنهج قراءةً مجرّدة عن العبادة الفكريّة للأصنام التاريخيّة ..

حينما يُكوِّرُ كلُّ مذهبٍ فكريٍّ في هذه الأمّةِ الفكرَ الإسلاميَّ في قالبه الخاصِّ به ، ويطبعه بألوانه المذهبيّة التي تميّزه .. حين ذلك لن يكونَ الفكرُ الإسلاميُّ أكثرَ من كرة قدمٍ ، في مباراةٍ لاعبوها المذاهبُ ذاتُها، وحكّامُها أعداءُ الأمّةِ ، والخاسرُ فيها هو هذه الأمّة ..

إنّه التاريخُ ذاتُه .. إنّهم الرجالُ ذاتُهم ، إنّها السننُ ذاتُها .. وما يتبدّل – مع الزمان والمكان – هو إرادةُ التغيير ، وصدقُ اتّباعِ المنهج ، وقوّةُ العزيمة في العمل الصادق .. لماذا نستغرب الكثيرَ ممّا نرى .. ألم ينتصر – في النهاية – اللاهثون وراء

الطعام الدسم في موائد معاوية ، على متدبّري المنهج ورافعي راية الشورى ، وذلك على يد الكثير من رجال الجيل الأوّل ..

علينا أن نعلمَ ما نريد من عواطفنا الجيّاشةِ .. هل نبحث عن صنمٍ نربطه بالتاريخ لينهض بنا فكراً وحضارةً ، معتقدين أنّ التغييرَ لن يكونَ إلاّ بالرجل المنتظر الذي يقلب – بلحظةٍ ما – الهزيمةَ إلى نصرٍ ، والتخلّفَ الحضاريَّ إلى سبقٍ نتجاوز به الأمم .. أم أنّنا نبحثُ عن فكرٍ سليمٍ مستمدٍّ من منهج الله تعالى ، يسمو بأنفسنا إلى التغيير المنشود ، تطبيقاً لقول الله تعالى ..

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد : ١١] ..

إنّ السنن الكونيّة لا تتغيّر ، ونحن بعواطفنا الهوجاء نبحث عن تغييرٍ لهذه السنن ، بدلاً من البحث عن تغييرٍ في نفوسنا ، عبر التدبّر السليم لكتاب الله تعالى ، وعبر العمل الصادق ، وعبر الأخذ بسنن الانبعاث الحضاري ..

إذا كان كلامُ الله تعالى وقولُه (القرآن الكريم) يأمرنا الله تعالى بتدبّره ، فكيف يُحظرُ علينا تدبّرُ أحداثٍ تاريخيّةٍ وقعت مع بشرٍ يخطئون ويصيبون ؟! .. أليس هذا الحظرُ دليلاً على أنّ هؤلاء – في معيار من ينادي بحضر قراءة التاريخ قراءة مجرّدة – أصنامٌ تاريخيّة ؟!! ..

وإذا كان التدبّر المجرّد للتاريخ سيقودنا إلى الفتنة ، كما يزعم الذين ينادون بحظر هذا التدبّر ، فنحن كأمّةٍ – بمنظارهم – أقلُّ من أن نكونَ أصحابَ عقولٍ ، وبالتالي لا ننتمي لأمّةٍ يأمرها الله تعالى بالتعقّل والتفكّر والتدبّر في الكثير من آيات كتابه الكريم ..

كيف يمكن لفكر الأمّة أن يتطوّر تطوّراً موازياً لما يحمله القرآن الكريم لعصرنا إذا كان ناظمه ومعياره تصوّرات العامّة المبنية من جزئيات التاريخ ، وإذا قُدّم العقل على أنّه مصدرٌ تشريعيٌّ في الخندق المعادي للتشريع الإسلامي ؟ !!! ..

.. أيّ فكر نرجوه من رجال يحاربون التعقّل والتدبّر والمنطق باسم الدين ، ويحسبون العقل موضوعاً مستقلاً ومصدراً مجرداً عن التعلّق بالموضوعات الأخرى ، ولم يدركوا بعد أنّ العقل عين النفس التي ترى من خلالها الحقائق وتبصر من خلالها الكليّات الكامنة خلف جزئيات الكون ، ولم يدركوا بعد أنّ النصّ الشرعيّ (القرآن الكريم) لا نرى من أحكامه إلاّ بمقدار تعقّلنا له ؟ !!! ..

فكما هي الرياضيات أداة للبرهنة على حقائق النواميس الكونيّة ، كذلك العقل نور يضيء حقيقة النواميس الكونيّة والشرعيّة على حدٍّ سواء ..

.. متى ندرك أنّ كلّ محاولة للتفاعل مع كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ومع نواميس الكون دون تعقّل مجرّد هي – في النهاية – محاولة للابتعاد عن رؤية الكليّات الكامنة في مواضيع التعقّل وللاكتفاء بالتفاعل مع الجزئيات كالحيوانات ، وبالتالي متى ندرك أنّ الحيوانات لا يدركون المنهج ، ولا يصنعون الفكر ، ولا يدخلون التاريخ ..

متى ندرك أنّ السير بالاتجاه السليم يقتضي مراجعة الذات بشكلٍ مستمرٍّ ، ونقد مسيرتها وفكرها على معايير مجرّدة عن هوى الذات ..

إنّ الألمَ يبلغُ ذروته حينما نرى الإسلامَ يُهدمُ باسم الإسلام ، ويكفّر المؤمنون باسم الإيمان ، ويُقتل الأبرياءُ باسم دين الله تعالى ، وكأنّ هؤلاء الأبرياء لو بقوا على قيد الحياة سينتصرون على الله جلّ وعلا عن ذلك علوّاً كبيراً ..

أين هو النصّ القرآنيّ الذي يُنصّبُ مذهباً بعينه ، وطائفةً بعينها ، وفكراً بعينه ، وشخصاً بعينه ، ناطقاً باسم الله تعالى ؟ .. وأين هو النصّ القرآنيّ الذي يُعطي بعضهم صلاحيّة تكفير الآخرين ، وقتلهم ، وذلك داخل مذاهب هذه الأمّة ، وتكفير المسالمين غير المعتدين من الأديان الأخرى ، وقتلهم ؟ .. وحتى لو توهّموا تأويلاً ساقطاً يُبرّرُ لهم ذلك ، فكيف ينسجم تأويلُهم الساقط مع الصورة القرآنيّة التالية ..

(لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الممتحنة : ٨ – ٩] ..

هذا الوجع الفكري الذي نعيشه ، والذي مزّق جسدَ هذه الأمّة , بحيث لم يعد يحسّ كلُّ جزءٍ من هذه الأمة بآلام الأجزاء الأخرى , والذي كان السببَ الأول في فشلنا الحضاري , وفي هزائمنا المتلاحقة .. هذا الوجع هل هو ألمُ مخاضٍ وولادةٍ لفكرٍ إسلاميٍّ نابعٍ من كتاب الله تعالى ؟ .. أم هو ألم احتضار ؟ .. إن ذلك يتوقف على صدق إرادتنا ونزاهتها , وعلى صدق إيماننا في تعقّلنا وتدبّرنا السليم لكتاب الله تعالى , وعلى تجردنا في قراءة التاريخ ..

.. وبالنتيجة فإنّ ولادة الأمّة في عالم الحضارة والتقدّم الذي يليق بها كأمّة تحمل منهج الله تعالى ، وتكلّف بإيصاله إلى البشريّة جمعاء ، هي ولادة أبنائها من رحم موروث الآباء والخروج من ظلمات التاريخ إلى نور الهداية التي يحملها كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ، وكتابه المنشور (الكون) ..

والله تعالى وليّ التوفيق

المهندس عدنان الرفاعي